

دور الرسوم الصخرية في التعريف بالحياة الدينية في الجزائر في التاريخ القديم

د/ فاطمة الزهراء عزوز
قسم التاريخ/ جامعة الجزائر 2

مقدمة:

استمدّ الإنسان الجزائري مثل باقي سكان المغرب القديم، أفكاره الدينية من الشعوب التي عاصرها، بفعل حركات الهجرة، والاستيطان، وغيرها من مظاهر الاحتكاك بين الشعوب، وهي حركات سمحت بالتأثر بالمعتقدات الدينية لتلك الشعوب، وهذا ما تذهب إليه دراسات كثيرة في هذا الشأن، وعلة ذلك تكمن في التطابق الصارخ بين مظاهر الفكر العقائدي الذي مارسه المغاربة، وبين ما يشبهها لدى الشعوب الأخرى، ولعلّ انتقال الفكر الديني الفينيقي إلى شمال إفريقيا، ومن بعده الروماني خير دليل على ذلك، دون تجاوز عبادة آلهة شعوب أخرى كالإله المصري آمون الذي عرفت عبادته من طرف المغاربة؛ ويمكن أن نشير إلى أنّ سكّان المغرب القدماء قد اندمجوا بعباداتهم ومعتقداتهم، في معتقدات الشعوب الأخرى، وفي طليعتها الشعب الفينيقي.

بيد أنّ هذا الاندماج، وذلك التأثير ليس معناه تجرّد الفرد الجزائري، وكذلك المغاربة في معتقداتهم الدينية من خصوصيات تميّزهم عمّن سواهم، وانسياقهم وراء الشعوب الأخرى بشكل نهائي؛ كما يمكننا أن نشير إلى أنّ التطابق بين معتقدات شعوب العالم القديم، وبين معتقدات المغاربة، قد يكون مردّه إلى تشابه حاصل بين البيئات الطبيعية المحيطة بالإنسان، والمتحكمة في تحديد المنهج العقائدي لدى الإنسان، وممارساته الدينية⁽¹⁾.

والظاهر أنّ ظهور الكتابة والتدوين قد سمح بشكل كبير بالتعريف بالواقع الحضاري، ومنه الديني لشعوب العالم القديم، بما فيها شعوب المغرب القديم، ومنهم الجزائريون القدماء؛ غير أنّ مصادر أخرى غير الكتابة كانت كفيلة بذلك التعريف، نقصد بذلك المخلفات الأثرية، وكذلك الرسوم الصخرية، وقد تكون هذه أكثر صدقية في إبراز الخصوصية الدينية لقدماء المغاربة، وفي تحديد معالمها؛ وفي ذلك تنفيذ لفكرة الاعتماد الكلي لسكان المغرب القديم على الشعوب والحضارات المتعاقبة عليهم في تنمية أفكارهم الدينية، وترسيخ فكرة الأسبقية التاريخية، والحضارية لبلاد المغرب عموماً، والجزائر على وجه الخصوص، بحكم أقدمية تلك الرسوم، وانتشارها بشكل واسع في مناطق عديدة من الجزائر.

ولعلّ ما نحتاج إليه في هذه الدراسة، هو البحث عن إجابة على سؤال نراه من الضرورة بمكان، إذا ما تعلّق الأمر بالبحث في الحياة الدينية ببلاد المغرب، وانفراد المغاربة، بما فيهم سكان الجزائر في القديم، بخصوصيات تميّزهم عن الشعوب الأخرى، وبالمصادر التي نقلت إلينا معارف عن المعتقدات الدينية الخاصة بهؤلاء السكان؛ وفي ذلك إشارة لما نعتبره إشكالية هذه الدراسة، والتي طرحناها كما يلي:

هل يمكن الأخذ بالرسوم الصخرية كمصدر لدراسة الحياة الدينية عند

قدماء الجزائريين؟ وما مدى صحّة الاعتماد عليها؟

من أجل الإجابة على هذه الإشكالية، ارتأينا أنّه من الضروري الإحاطة بمضامين الرسوم الصخرية، وذلك من خلال التطرق بإيجاز إلى المواضيع التي تتناولها، وكذلك تقديم عرض موجز وسريع عن أشهر المشاهد المتعلقة بالحياة الدينية كما فسّرها المختصّون، من خلال العبادات الطوطمية التي أظهرتها الرسوم، ثمّ الإجابة التي تظهر في خاتمة هذه الدراسة، والتي

سنحاول من خلالها تصنيف الرّسوم الصّخرية ضمن المصادر التي يعول عليها في كتابة تاريخ الجزائر.

المضامين الدّينية للرسوم الصخرية:

لا شكّ في أنّ المختصّين قد توصّلوا إلى ذلك، حسب اطلاعنا، ورأوا بأنّ تلك الرّسوم، إلى جانب كونها لوحات فنيّة ذات خصائص جمالية خلّقتها أقوام بشرية في عصور مضت على حدّ ما جاء به الأستاذ كمال شاعو⁽²⁾، فهي تتغلّ مختلف الانشغالات اليومية، والحياتية للإنسان الذي رسمها، وعبر فيها عن علاقته بالطبيعة التي كانت تحيط به، وقد مثّل الحيوان تلك الطبيعة في أغلب الحالات، وكان حضوره فيها (في الرسوم) حضوراً قوياً، إذ نراه في مشاهد الزراعة، والصيد، وأداء الطقوس التعبدية⁽³⁾.

قد لا يتضمّن ما وصلنا من الرّسوم الصّخرية مشاهد متعلّقة بالفكر العقائدي، كتصوير الآلهة، وبالممارسات الدّينية، كالمشاهد التي تبيّن أداء الطقوس التعبدية بشكل مباشر؛ إلّا أنّه بالإمكان استنتاج ذلك من خلال ما تلمّح إليه تلك الرّسوم، وإن كانت تبيّن نشاطاً اقتصادياً كالصيد مثلاً، وهو ما يجعلنا نذهب إلى الفكرة التي أدرجها فراس السواح في كتابه دين الإنسان، بشأن الصّور، التي وإن كانت في ظاهرها صوراً لحيوانات تستخدم لأغراض اقتصادية، فهي ذات دلّاتل ورموز دينية، إذ يذكر في ذلك الصدد بأنّها لم تكن مدفوعة بضغط من الوسط الطبيعي، وهو هنا يتحدّث عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للإنسان، قدر ما هي مدفوعة بضغط فكري من نوع خاصّ، وهنا يقصد الدّين⁽⁴⁾.

وفي هذا الصدد، نحاول أن نبدي رأينا بشأن إمكانية ربط الوسط الطبيعي، الذي أشار إليه فراس السواح، بما وصفه بالضغط الفكري الذي هو الدّين، دون القول بانفصالية أحدهما عن الآخر، وعلمنا في ذلك هي أنّ الفكر

الديني يستمدّ مظاهره من القوّة المحيطة بالإنسان، والمتحكمة في نمط اعتقاداته، وهي القوّة الطبيعية.

العبادة الطوطمية من خلال مشاهد الرّسوم الصّخرية: الكباش نموذجاً.

ليس الحديث عن العبادة الطوطمية، التي تتمثل في عبادة الحيوانات، هو بالضرورة حديث عن تأليه الحيوان، إذ لم يثبت فيما اطلعنا عليه من دراسات أنّ الإنسان الجزائري قد اتخذ حيواناً إلهاً، وهذا ما أكدّه لنا القديس أوغسطين عندما ذكر بأنّ المصريين وحدهم من عبد الحيوان، فظهور الحيوانات في مشاهد دينية، يرمز إلى تقديسها لا تأليهها، فقد كان الكباش إلى جانب الأبقار، والأيائل، والأسود، والزرافات، والنعام، من الحيوانات التي تكرّر ظهورها في الرسوم الصخرية، على أنّها عناصر تقديس، لما كانت ترمز إليه⁽⁵⁾، ولنضرب في ذلك مثلاً الكباش الذي رمز إلى الخصوبة، والعجل الذي يرمز إلى القوة والتكاثر.

نشير إلى أنّ رسوماً صخرية كثيرة في مواقع مختلفة من أرجاء الجزائر يرجع تاريخها إلى العصر الحجري الحديث (النيوليتي)، أظهرت الكباش في طليعة الحيوانات المقدّسة، إذ عثر في إحدى مناطق الجنوب الوهراني وهي منطقة زناقة بوعلام على صورة لكباش أقرن، يتوسّط قرنيه رسم دائريّ، وهي الصورة نفسها التي ظهرت بمنطقة قصر زكار بالجنوب الوهراني كذلك؛ هذا ويبدو أنّ مثل هذه الصّور كانت منتشرة في أرجاء أخرى من الجزائر على غرار مناطق عين الناقّة، والصافي بورنان في الجلفة، ومنطقة آفلو بالأغواط، وكذلك مناطق الشرق القسنطيني مثل خنقة بوحجار، وكهف تسنغة⁽⁶⁾.

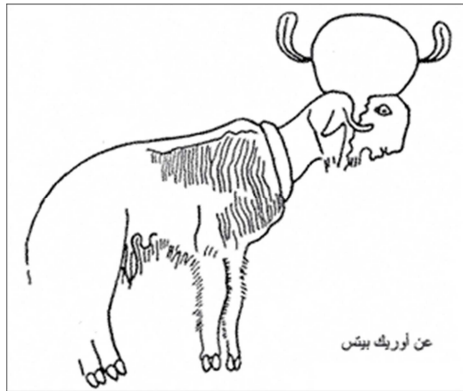
وهنا نتوقف للحديث عن الكباش المقدّس الذي يرجّح أنّ مظاهر تقديسه جاءت من مصر، وهو ما ناقشه الأستاذ محمّد الهادي حارش بالاستناد إلى دلائل علمية، وأثبت أصوله المغربية، والتي يهمنها منها أنّ معظم الرّسوم

الصخرية للكباش التي ظهرت في الجنوب الوهراني ترجع إلى النيوليتيك الصحراوي، والمحدّد زمنياً بالفترة الممتدة ما بين ستة آلاف إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وفي ذلك استبعاد للرأي القائل بالأصول المصرية لعبادة الكباش آمون في الجزائر⁽⁷⁾.

وبخصوص القرص الدائري الذي كان يتوسّط قرني الحيوان، فقد كان يرمز إلى الخصوبة والأمومة، ولن ندخل هنا في تفاصيل الرّبط بينه وبين قرص الشمس لدى قدماء المصريين، فقد فصلنا في العنصر السابق في الأمر، وذكرنا السبب وهو الأسبقية التاريخية للرسوم الصخرية التي ترجع إلى الفترة ما قبل النيوليتية بالمقارنة مع تاريخ عبادة قرص الشمس في مصر القديمة⁽⁸⁾.



مشهد الكيش في الرسوم الصخرية



وقد ظهر القرص في رسوم أخرى، مثل مشهد الزرافتين المسبوقتين بقرص التقديس، الموجود في وادي جرات بمنطقة طاسيلي ناجر⁽⁹⁾.

الإنسان في الرسوم الصخرية:

لم يكن الحيوان هو البطل الوحيد الذي ظهر في الرسوم الصخرية، من أجل التعبير عن المقدّسات، ومن ذلك نقل مشاهد متعلّقة بالحياة الدّينية، لدى الإنسان، وهو محور أساسي لحدوث الظاهرة العقائدية، وحتّى الدّينية، فلم يكتف بتصوير مقدّساته، التي كانت في الأغلب حيوانات، على الصّخور إنّما صوّر نفسه إفي جانبها، وهو في وضعيات شتّى، منها أداء الطّقوس تجاهها، فعلى حدّ الباحث فابريتشيو موري، تضمّنت الرّسوم حركة المجموعات البشرية، في مختلف أحوالها بما فيها حال أداء الطّقوس والمعتقدات التي يبدو أنّها ثابتة، ومنظمة، وكثيرا ما حدث هذا إلى جانب الحيوانات المقدّسة، أو إلى جانب مقدّسات غير حيوانية⁽¹⁰⁾.



مشهد الإنسان

الخاتمة:

ليست خاتمتنا مجرد حوصلة لما فات ذكره أعلاه، بل هي صميم الموضوع الذي نصل من خلاله إلى تصنيف الرّسوم الصّخرية ضمن قائمة المصادر الأساسية لدراسة التاريخ الجزائري القديم بشكل عام، والتاريخ الدّيني بشكل خاص، ويكفي أن يكون ما ذكرناه بشأن عبادة الكباش أمون وتقديسه من طرف الجزائريين، دليلا على أهمية الاستناد إلى الرّسوم الصّخرية في إثبات مصدر تلك العباد المرجّح أنّه مصر القديمة، من عدمه، إذ

فندت مشاهد الكباش في غير موضع، أصوله المصرية، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً، وأثبتت بأنّ تقديسه كان محلياً، بحكم الأسبقية التاريخية للرّسوم.

وإذا أردنا أن نصنّف الرّسوم الصّخرية منهجياً، فهي ستكون من المصادر المادية، أي الأثرية من غير شكّ، على أننا نحاول بدون مبالغة، أن نجعلها في مرتبة المصادر التي تكاد تكون أدبيّة، إذا صحّ رأينا، وعلّتنا في ذلك أنّها جهد الإنسان الذي حاول أن ينقل أحداثا عاشها إلى غيره، وأن يحفظها في مرحلة كانت سابقة للتدوين، وظهور الكتابة؛ ولعلّ ظهور الرّموز، كالأقراص، والأشكال الحزونية كان بمثابة محاولة تدوين الأحداث، ولتكن في رأينا المرحلة الانتقالية التي تفصل بين فترتي ما قبل ظهور الكتابة وظهورها.

أمر آخر نلمسه في الرّسوم الصّخرية، وقراءتها، هو أنّها خدمت الهوية الجزائرية، وأثبتت عراقتها، عندما أسكتت المصادر غير الوطنية، وقدمت لها دليلاً على أنّ التاريخ الجزائري، دونّ بأقلام جزائرية، وإن لم تكن آنذاك أقلام، بل هي رسوم، وهو يسمح لنا بأن نتطلّع إلى التفكير بوجود مدرسة وطنية نستمدّ منها تاريخ الجزائر، دون الرجوع إلى أصول غير محلية، ومقاربتها، ومحاولة استنطاقها، للخروج بنتائج تستبعد وجود تاريخ مستقل لهذا البلد لأسباب مقصودة.

ومما ذكرناه، نصل إلى الإشادة بالدور العلمي الذي يمكن أن تؤدّيه الرّسوم الصّخرية، في نقل أحداث التاريخ القديم، والفترات السابقة لبدء التدوين، من خلال المشاهد الفنية، وعرضها للدراسة والتحليل، ومن ثمّة الخروج برصيد معلوماتي يكون ذا مصداقية أكثر بحكم كونه محلياً محضاً، وفي الأمر دعوة إل تكثيف الدراسات العلمية التاريخية حول الرسوم الصخرية، وعدم اعتبارها مجرد لوحات فنية لها نظرة جمالية، يهتم بها مختصو الفنون الجميلة، وإن كان الأمر لا يقل أهمية، لأن الدراسات الفنية بدورها أسدت خدمة للدراسات التاريخية، من خلال شرح المستوى الفني للإنسان المغاربي القديم.

قد يكون ما ذكرناه كفيلاً بالإجابة عن الإشكالية المطروحة، وهي تأكيد أهمية الرسوم الصخرية، ودورها في التعريف بالتاريخ الوطني، الذي أشرنا إلى نموذج منه، هو الجانب الدّيني.

الهوامش:

- (1) فاطمة الزهراء عزوز، تأثير المعتقدات الفينيقية في الديانة العبرانية من خلال مكتشفات راس شمرا ونصوص العهد القديم، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه، نوقشت بتاريخ 08 / 02 / 2012م، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، ص 56-57.
- (2) كمال شاعو، "دور نقوش ورسومات الطاسيلي في التعريف بعصور ما قبل التاريخ"، آراء ودراسات في التاريخ والآثار القديمة، أشغال الندوة العلمية بالمدسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 23 / 24 ديسمبر 2011م، ص 60-61.
- (3) يوغرطة حدادو، "بعض مدلولات مشاهد النقوش الصخرية للإنسان والحيوان في منطقة الأطلس الصحراوي"، آثار ودراسات، المرجع السابق، ص 51-52.
- (4) فراس السواح، دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط4، دار علاء الدين، دمشق، 2002م، ص 164.
- (5) محمد العربي العقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، الجزائر، 2008م، ص 239.
- (6) محمد الصغير غانم، الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، الجزائر، 2005م، ص 52.
- (7) محمد الهادي حارش، "أصول عبادة آمون في المغرب القديم"، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 4، 1988م، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ص 15.
- (8) إبراهيم العيد بشي، طاسيلي ناجر: الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الطارقي قديماً وحديثاً، ط1، منشورات الحبر، الجزائر، 2009م، ص 21؛ حدادو يوغرطة، المرجع السابق، ص 53.
- (9) إبراهيم العيد بشي، مدخل إلى تاريخ حضارات بلاد المغرب القديم، دراسة حضارية منذ فترة ما قبل التاريخ حتى الفتح الإسلامي، منشورات زاد الطالب، الجزائر، 2011م، ص 63.
- (10) إبراهيم العيد بشي، طاسيلي ناجر، ص 47.